وما دام الحق سبحانه قد قال: ﴿لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ..﴾ فلن تجد أحداً قادراً على ذلك، كما أن الخلق مقهورون كلهم يوم القيامة؛ ومَنْ كان يبيح له الله تعالى أن يملك شيئاً فى الدنيا لم يعد مالكاً لشىء، بدليل أن الكل سيسمع قول الحق سبحانه:

﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

وما دام الحق سبحانه قد وعد ببشرى الدنيا وبشرى الآخرة، فلا تبديل لما حكم به الله، فلا شىء يتأبَّى على حكم الله تعالى، والوعد بالبُشريات فى الدنيا وفى الآخرة فوز عظيم مؤكد.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥)﴾

تجىء هذه الآية بعد أن بيَّن لنا الله سبحانه وتعالى اعتراضات الكفار، وإيذاءهم لرسول الله ﷺ وتكذيبهم له وقولهم فيه ما قالوه، وفيما قالوه ما أحزنه ﷺ؛ لذلك طلب منه الحق سبحانه ألاَّ ينفعل لما قالوه انفعال الحزين، فقد قالوا: ساحر، وكاذب، ومُفْتَر، ومجنون، وقد نفى عنه الحق سبحانه كل ما قالوه، فلو كان محمد ﷺ ساحراً فلماذا لم يسحرهم هم أيضاً، وهل للمسحور إرادة مع الساحر؟!

إذن: كَذَّبَ قولَهم فى أنه ﷺ سحر عبيدَهم وأولادَهم.

وقالوا: مجنون، ولم يكن فى سلوكه ﷺ أدنى أثر من جنون، وفنَّد أقوالهم هذه بقوله سبحانه:

﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ[1] (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)﴾ [القلم]

فالمجنون لا يكون على خُلُق عظيم أبداً .

وحين قالوا : إنه افترى القرآن ، تحداهم أن يأتوا بسورة من مثل ما قال[2] ، وعجزوا عن ذلك رغم أنهم مرتاضون[3] للشعر والأدب والبيان .

وقول الحق سبحانه :

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ .. (٦٥)﴾ لأن أقوالهم لا حصيلة لها من الوقوف أمام الدعوة ؛ لأن ﴿.. الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا .. (٦٥)﴾ والعزة هي القوة ، والغلبة ، ويقال: هذا الشيء عزيز ، أي: لا يوجد مثله ، وهو سبحانه العزيز المُطْلَق ؛ لأنه لا إله إلا هو لا يُغلَب ولا يُقهَر .

وتلحظ حين تقرأ هذه الآية وجود حرف «الميم» فوق كلمة ﴿قَوْلُهُمْ ۘ﴾[4] وتعني : ضرورة الوقف هنا .

---

(١) مَنّ عليه بالعتق وغيره (مَنّا) من باب قتل . وامتن عليه به : أنعم عليه به . والاسم المِنّة ، والجمع (مِنن) والمُنّة بالضم : القوة ، وهي من الأضداد . ومننت عليه : أي : عددت له ما فعلت له من الصنائع . وفي هذا تكدير وتعيير تنكسر منه القلوب . لهذا نهى الشارع عنه في قوله : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤)﴾ [البقرة] . ومننت الشيء أيضاً إذا قطعته فهو ممنون . والمنّ : شيء يسقط من السماء . فيجنى . [المصباح - بتصرف] .

(٢) وذلك قوله تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨)﴾ [يونس] .

(٣) مرتاضون للشعر : أي : لهم دُرْبة على قول الشعر ونَظْمه .

(٤) وهذا هو الوقف اللازم ، ومثله قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ .. (٣٦)﴾ [الأنعام] .

ولسائل أن يقول:

كيف يلزم الوقف هنا مع أن القرآن الكريم مبنىٌّ على الوصل ؛ وآخر حرف فى كل سورة تجده مُنوَّناً ، وليس فى القرآن ما يُلزِم الوقف للقارىء ؟

وأقول رَدّاً على هذا التساؤل: إن العلماء حين لاحظوا ضعف مَلَكة اللغة ؛ جاءوا بهذا الوقف ليتفهم القارىء - الذى لا علم له بالبيان العربى - كيف يقرأ هذه الآية ، فهَبْ أن واحداً لا يملك فطنة الأداء ، فينسب ﴿.. إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ..(٦٥)﴾ إلى ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ..(٦٥)﴾. ويخطىء الفهم ، ويظن - معاذ الله - أن العزة لله هى أمر يُحزن النبى ﷺ ؛ لذلك جاء العلماء بالوقف هنا لندقِّق القراءة ونُحْسِن الفهم.

ولذلك علينا أن نقرأ ﴿.. وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ .. (٦٥)﴾ ثم نتوقف قبل أن نتابع القراءة ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا .. (٦٥)﴾ ؛وبهذا نفهم المعنى : يجب ألاَّ تحزن يا محمد ؛لأن أقوالهم لن تغيِّر فى مجرى حتمية انتصارك عليهم.

ويريد الحق سبحانه هنا أن يطمئن رسوله ﷺ فى أمر محدد ، هو أنه ﷺ مهمته هى البلاغ فقط ، وليس عليه أن يُلزمهم بالإيمان برسالته والتسليم لمنهجه .

وبيّن له الحق سبحانه : أنهم إذا ما صدُّوا بعد بلاغك ، فلا تحزن مما يقولون ؛ فأقوالهم لا يقوم عليها دليل ، ولا تنهض لها حُجَّة ، وقد جاء فيهم قول الحق سبحانه :

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا[1] أَنفُسُهُمْ ..(١٤)﴾ [النمل]

(١) الجحود: الإنكار رغم العلم. واستيقن الأمر: علمه على سبيل اليقين. [لسان العرب: مادة (ى ق ن)].

وأقوالهم لن تقف فى سبيل دعوتك ، وسيُتمُّ الله نوره ، ولا يوجد أعز من الله سبحانه وتعالى ، ولن يجير أحد على الله أحداً ، فهو سبحانه يُجير ولا يُجار عليه .

وإذا كانت العزة هى القهر والغلبة ، وقد تكون عزة حُجّة ، وقد تكون عزة حلْف ، وقد تكون عزة حكمة ، وكل واحد من خلق الله سبحانه قد توجد له عزة مجال ما أو محيط ما ، لكن العزة لله سبحانه شاملة مطلقة فى كل محيطٍ وفى كُل مجال ، شّاملة لكل شىء وأى شىء .

ولماذا لم يأت الحق سبحانه بأسلوب القَصْر [1] فى هذه الآية ؟

أى : أن تأتى الصفة للموصوف وتنفيها عما عداه ؛ كأن نقول : «لزيدٍ مالٌ ليس لغيره» . وإذا قدمنا الجار والمجرور - وهو المتعلّق - فنقول : «لفلان كذا» ، وهذا يعنى أن غير فلانٍ ليس له كذا .

وإنْ قلنا : «فلان له كذا» فيصح أن نقول : «ولفلانٍ كذا ، ولفلانٍ كذا ، ولفلانٍ كذا» .

أما إذا قلت : «لفلان كذا» فمعناها : امتناع أن يكون لغير فلان شىء من مثل ما قلت .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ . . إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا . . (٦٥) ﴾ وجاء بالتأكيد ولم يأت لها بأسلوب القصر الذى يعطى العزة لله سبحانه وينفيها عن غيره ؛ لأنه لا يوجد لهذه الآية مناهض ، وهو كلام ابتدائى يخبر به الله سبحانه خبراً كونياً بأن العزة لله جميعاً .

---

(١) أسلوب القصر (أو الحصر) : هو تخصيص أمر بآخر بطريق مخصوص ، وهو إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه . وينقسم إلى : قصر الموصوف على الصفة ، وقصر الصفة على الموصوف ؛ وكل منهما إما حقيقى وإما مجازى . [الإتقان فى علوم القرآن ، لجلال الدين السيوطى - ٣/ ١٤٩] .

وما دام الحق سبحانه هو الذى يقول ذلك - وهو خالق الخلق - فلن تأتى قضية كونية تناقضها ، ولو وجدت - معاذ الله - قضية كونية تناقضها ، فالآية لن تكون صادقة . وهذا لم ولن يحدث أبداً مع آيات الحق سبحانه ؛ لأنه هو خالق الكون ، وهو مُنزل الآيات ؛ فلا يمكن أن يحدث تناقض أبداً بين الكون وكلام خالق الكون سبحانه وتعالى .

وقد حدث أن ادعى بعضهم [1] العزة لنفسه وقالوا:

﴿ . . لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ . . (٨) ﴾ [المنافقون]

وكان مغزى قولهم هو ادعاء العزة لأنفسهم ، وادعاء الذلة للمؤمنين .

إذن: فالعزة قد ادُّعيت ، وما دامت قد ادعيت فلماذا لم تأت بأسلوب القصر؟

نقول: لا ، لقد شاء الحق سبحانه أن يقول:

﴿ . . وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ . . (٨) ﴾ [المنافقون]

فالعزة لله لا تتعداه ، ولكنه سبحانه شاء أن تكون عزة رسوله ﷺ وعزة المؤمنين من باطن عزة الله تعالى .

وقول الحق سبحانه هنا:

﴿ . . إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا . . ﴾ أى: فى كل ألوانها هى لله سبحانه وتعالى ، إن كانت عزة حكمة فهو الحكيم ، وإنْ كانت عزة القبض على الأمور فهو

(١) هو عبد الله بن أبىّ رأس النفاق فى المدينة ، وكان ذلك فى غزوة بنى المصطلق فى شهر شعبان فى السنة السادسة من الهجرة ، وذلك أنه وصف محمداً وصحبه فقال: « قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ، والله ما أعدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول: سَمِّن كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعز منها الأذل . ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم » . أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٣/ ٢٩٠ ، ٢٩١) .

العـزيز ، وإن كـانت عـزة الحلـم فـهـو الحليم ، وإنْ كـانت عـزة الغـضب والانتقام فهو المنتقم الجبّار ، وكلُّ ألوان العزة لله تعالى:

﴿. . هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥)﴾ [يونس]

وما دامت العزة هى الغلبة والقهر ، فالله سبحانه يسمع من يستحق أن يُقهر منه ، وما دام الأمر فيه قول فهو يجىء بالسمع ، وإنْ كان فيه فعل ، فهو يأتى بصفة العليم ، فهو السميع لما يُقال والعليم بما يُفعل.

ونحن نعلم أن المنهىَّ عنه هنا هو: ﴿وَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ . .(٦٥)﴾[يونس]

لذلك كان المناسب أن يقال : ﴿هُوَ السَّمِيعُ . .﴾ أولاً.

ويريد الحق سبحانه أن يدلّل على هذه القضية دلالة كونية فى آيات الله تعالى فى الكون ، وليس فى الوجود أو الكون مَنْ يقف أمامه سبحانه ؛ لذلك لا بد أن نلحظ أن قانون «العزة لله جميعاً» محكوم بأن لله تعالى ما فى السموات وما فى الأرض.

لذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ[1] (٦٦)﴾

فالحق سبحانه - إذن - لن يَخرج كائنٌ مَنْ كان عن ملكه.

وساعة تجد الحق سبحانه يبيِّن الشىء وضده ، فهو يأتى بالقانون والإطار

(١) يخرصون: يتبعون ظنونهم وكذبهم وإفكهم [تفسير ابن كثير (٢/ ٤٢٤)].

﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ..(٢٨٤)﴾ [البقرة]

ومثال ذلك: حين تبع قوم فرعون موسى - عليه السلام - وقومه ، قال أصحاب موسى: ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) ﴾ [الشعراء]

قالوا ذلك ؛ لأنهم رأوا البحر أمامهم ، فشاء الحق سبحانه أن يبيِّن لهم أن البحر لن يعوق مشيئته سبحانه ، ولم ينفلت البحر من قوة الله تعالى ؛ لأن لله ما في السموات وما في الأرض ، والبحر منها ؛ لذلك انفلق البحر ، فكان كل فِرْق كالطود العظيم[1] .

فلا شيء يخرج عن مُلكه سبحانه تعالى ؛ولذلك يأتي الحق سبحانه بالنقيض ، فبعد أن جعل الحق سبحانه لهم مسلكاً في البحر ، وكل فِرْق كالطود العظيم ، ويظل البحر مفلوقاً فيدخل قوم فرعون فيه .

والحق سبحانه يقول لموسى عليه السلام :﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) ﴾ [الدخان]

فيأمر الحق سبحانه البحر أن يعود كما كان ؛ فيغرق قوم فرعون بعد أن أنجى الله - سبحانه وتعالى - موسى - عليه السلام - ومن معه ، فأهلك وأنجى بالشيء الواحد ؛ لأنه سبحانه له ما في السموات وما في الأرض ، وليبيِّن الحق سبحانه لنا أنه لا شيء في كون الله تعالى يقوم مقام عزته سبحانه أبداً.

---

(١) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨) ﴾ [الشعراء] .

والفِرْق: الفلق أو الجزء منه . والطود: الجبل الكبير . [ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٣٦)]، و[لسان العرب : مادة (ف ر ق)].

وهناك مثال آخر: حين يقول نوح - عليه السلام - لابنه:

﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا..(٤٢)﴾ [هود]

فيردّ الابن قائلاً:

﴿سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ [1]..(٤٣)﴾ [هود]

وهذا كلام صحيح من ناحية أن الجبل يعلو مستواه عن مستوى المياه، ولكن ابن نوح نسى أن لله تعالى جندياً آخر هو الموج؛ فكان من المغرَقين.

صحيح أن ابن نوح فطن إلى أن السفينة سوف تستوى على «الجودى» [2]، وأن من يركبها لن يغرق، وكذلك من يأوى إلى الجبل العالى، لكنه لم يفطن إلى الموج الذى حال بينه وبين الجبل؛ فكان من المغرقين.

إذن: فكل كائن هو مؤتمر بأمر من الله تعالى، وما دامت العزة لله جميعاً فمصداقها أن لله تعالى ما فى السموات وما فى الأرض، وليس هناك كائن فى الوجود يتأبَّى على أن يكون جندياً من جنود الحق سبحانه، فيكون جندياً للإهلاك، وجندياً للنجاة فى نفس الوقت [3].

وقول الحق سبحانه هنا: (ألا) نعلم منه أن (ألا) أداة تنبيه للسامع فلا يؤخذ على غرَّة، ولا تفوته حكمة من حكم الكلام، وينتبه إلى أن

---

(١) يقول رب العزة سبحانه: ﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣)﴾ [هود] لقد اعتقد ابن نوح بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رءوس الجبال، وأنه لو تعلق فى رأس جبل لنجاه ذلك من الغرق. [تفسير ابن كثير ٢/٤٤٦].

(٢) الجودى: قال مجاهد: هو جبل بالجزيرة، وهو الذى رست عليه سفينة نوح - عليه السلام. [تفسير ابن كثير ٢/٤٤٦]. وقيل: إنه جبل أرارات فى شرق تركيا بالأناضول.

(٣) يقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤)﴾ [الفتح] ويقول أيضاً: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ..(٣١)﴾ [المدثر].

هناك خطاباً عليه أن يجمع عقله كله ليحسن استقبال ما فى هذا الخطاب .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ ألا إنَّ للَّهِ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ .. ﴿٦٦﴾ ﴾ [يونس]

ولقائل أن يقول: هناك كثير من الكائنات غير العاقلة ، وقوله هنا ﴿مَن﴾ مقصود به الكائنات العاقلة ؟

ولنا أن نتساءل للرَّدِّ على هذا القائل :

وهل هناك أى شىء فى الوجود لا يفهم عن الله ؟

طبعاً لا ، والله سبحانه وتعالى هو القائل عن الأرض :

﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ ﴾ [الزلزلة]

إذن: فكل الكائنات فى عُرف الاستقبال عن الله سبحانه سواء بـ «مَنْ» أو بـ «ما» ، وكل من فى الوجود يفهم عن الله .

ونلحظ أن الحق سبحانه يأتى مرة بالقول: ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا .. ﴿٨٣﴾ ﴾ [آل عمران]

ومرة يقول الحق سبحانه :

﴿ ألا إنَّ للَّهِ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ .. ﴿٦٦﴾ ﴾ [يونس]

كما جاء فى هذه الآية التى نحن بصددها الآن .

شاء الحق سبحانه ذلك ؛ لأن هناك جنساً فى الوجود يوجد فى السماء ويوجد فى الأرض ، وهم الملائكة المُدَبِّرَات[1] أمْراً ، هؤلاء هم المقصودون بأن لله ما فى السموات والأرض.

(١) المدبِّرات أمراً : هى الملائكة تُدبِّر الأمر من السماء إلى الأرض بأمر ربها - عز وجل .

ولله سبحانه وتعالى أيضاً جنس في السموات لا يوجد في الأرض وهم الملائكة المهيمون [1] العالين ، وليس لهم وجود على الأرض ، كما أن لله تعالى جنوداً في الأرض ليس لهم وجود في السماء ، فإن لاحظنا الملائكة المدبرات أمراً ، نجد أن قول الحق سبحانه:

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ..(٢٨٤)﴾ [البقرة]

مناسب لها.

وإن لاحظنا أن لله ملائكة مهيمين في السماء ، وجنوداً في الأرض لا علاقة لهم بالسماء يكون مناسباً لذلك قول الحق سبحانه :

﴿لِلَّهِ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ ..(٦٦)﴾ [يونس]

وما دام كل شيء في الكون مملوكاً لله تعالى فلا شيء يخرج عن مراده سبحانه ، فلا يوجد مثلاً غار يدخله كائن فراراً من الله ؛ لأنه سبحانه قادر على أن يسد الغار ، وإن شاء الله سبحانه أن يساعد من دخل الغار فهو تعالى يعمى بصر من يرقب الغار [2].

إذن: فلن يجير [3] شيء على الله تعالى ، وستظل له صفة العزة

---

(١) المهيمون: الذين يهيمون في عبادة الله وطاعته ، فمن الملائكة من لا شغل لهم إلا العبادة فتجد منهم القائمين فلا يركعون ، والركع فلا يسجدون ، والسجود فلا يرفعون . وهناك الملائكة الكروبيون ، وهم أقرب الملائكة لحملة العرش الثمانية ، قال عنهم سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ..(٧)﴾ [غافر].

(٢) استجار به : طلب حمايته . قال تعالى : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ..(٦)﴾ [التوبة] وأجاره : تكفل بحمايته . قال تعالى : ﴿..وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ..(٨٨)﴾ [المؤمنون] أي : أنه يتكفَّل بحمايته من يلجأ إليه ولا يستطيع أحد أن يجير من يُريد الله عقابه . [القاموس القويم - بتصرف].

(٣) هذا إشارة إلى ما حدث في هجرة الرسول ﷺ ومعه أبو بكر من مكة إلى المدينة عندما دخلوا الغار وأنبت الله على بابه شجرة وأوجد حمامتين ترقدان على البيض ، وعنكبوتاً كبيراً قد سد باب الغار بخيوط علاها تراب وكأنه تراب السنين.

لا يخدشها خادش من وجود الله فى الكون.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ.. ﴿٦٦﴾ ﴾ [يونس]

ومعنى اتباعهم شركاء كأن هناك شركاء، رغم أن الأصل والحقيقة ألاَّ شركاء له سبحانه.

إذن: فهم يتبعون غير شىء؛ والدليل على ذلك موجود فى طى القضية، فهم يعبدونهم من دون الله تعالى، ومعنى العبادة أن يطاع أمر وينهى نهى، وما يعبدونه من أشياء لا أوامر لها ولا نواهى؛ فليس هناك منهج جاءوا به.

إذن: فلا ألوهية لهم.

إذن: فالأصل ألا شركاء لله تعالى، ولو كان له شركاء لأنزلوا منهجاً ولأوجدوا أوامر، وكان لهم نواه؛ لأن الذى يقول: «اعبدنى» إنما يحدد طريقة وأسلوب العبادة. وهاتوا واحداً من الذين تتبعونهم وتدعون لهم يكون له منهج، ولن يستطيعوا ذلك، والحق سبحانه هو القائل:

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [الإسراء]

أى: أننا لو افترضنا أن هناك آلهة ولها مظهر قوة كالشمس التى تضىء والقمر الذى ينير، والمطر الذى ينزل من السماء، والملائكة التى تدبِّر الأمر، لو صدَّقنا أن كل هؤلاء آلهة، فهم سيبحثون عن الإله الواحد الأحد؛ ليأخذوا منه القوة التى ظننتم أنها لهم.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) ﴾ [المؤمنون]

إذ لو كان هذا الأمر صحيحاً لكانت هناك ولايات إلهية.

ولذلك قال الحق سبحانه:

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ .. (٥٧) ﴾ [الإسراء]

و هم قالوا إنهم يعبدون الملائكة، وعليهم أن يعلموا أن الملائكة نفسها تعبد الله سبحانه وتعالى، وما دام لا يوجد شركاء لله لتتبعوهم؛ إذن: فأنتم تتبعون الظن.

لذلك جاء قول الحق سبحانه:

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ[1] وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ[2] (٦٦) ﴾ [يونس]

ونحن نجد الذين أولعوا بأن يُوجدوا في القرآن ظاهر تعارض ليشككوا فيه، قالوا: إن هذه الآية مثالٌ على ذلك؛ فيقولون: في بداية الآية يقول: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ .. (٦٦) ﴾ [يونس]

فينفي أن المشركين يتبعون شركاء لله، ثم يأتي في آخر الآية فيقول إنهم يتَّبعون الظن والخرص، ففي أولها ينفي الاتباع، وفي آخرها يثبته.

---

(١) الظن: ما يحصل في النفس عن أمارة، فهو شك راجح وفعله من أفعال الرجحان، من باب نصر. والظن مصدر، والظن: اسم لهذا الخاطر الذي يحصل في النفس. قال تعالى: ﴿ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) ﴾ [النجم] وجمعه: ظنون، ويستعمل الظن بمعنى اليقين مجازاً كقوله تعالى: ﴿ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) ﴾ [الحاقة] بمعنى تيقنت. [القاموس القويم - بتصرف].

(٢) الخرص: الكذب والقول بغير علم. وقال تعالى: ﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) ﴾ [الذاريات] قال الزجاج: أي: الكذابون. [لسان العرب: مادة (خ ر ص) - بتصرف].

وهذا جهل ممن قال بهذا وادعى أن هناك تناقضاً فى الآية ، فالله سبحانه ينفى أن يكون ما يدعوه هؤلاء المشركون شركاء لله فى ملكه ، فللَّه من فى السموات ومن فى الأرض ، ولكنه يثبت أنهم يتَّبعون الظن والخرص والتخمين.

ونقول: ما هو الظن؟ وما هو الخرص؟

إن الظن حكم بالراجح كما أوضحنا من قبل فى النسب من أن هناك نسبة إنْ لم تكن موجودة فهى مشكوك فيها ، أو نسبة راجحة ، أو أن نسبة يتساوى فيها الشك مع الإثبات ، فإنْ كان الشك مساوياً للإثبات فهذا هو الشك. وإن رجحت ، فهذا هو الظن . أما المرجوح فنسميه وهماً.

الظن - إذن - حكم بالراجح. والخَرْص: هو التخمين ، والقول بلا قاعدة أو دليل.

والحق سبحانه يقول هنا:

﴿إن يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ وَإنْ هُمْ إلاَّ يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [يونس]

والقرآن حين يوجه خطاباً فهو يأتى بالخطاب المستوعب لكل ممكن ، وهو سبحانه حكم عليهم هنا أنهم يتَّبعون الظن والخرص.

ونحن نعلم أن الكافرين قسمان: قسم يُعْلم حقيقة الشىء ، ولكنه يغيِّر الحقيقة إلى إفك [1] وإلى خَرْص ، وقسم آخر لا يعرف حقيقة الشىء ، بل يستمع إلى من يعتقد أنه يعرف .

---

(١) أفكَ ، يأفَك ويأفك - من باب « فرح » و« ضرب » : كذب وافترى باطلاً والإفك بكسر الهمزة : الكذب : وأفاك صيغة مبالغة أى : كثير الكذب . قال تعالى : ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾﴾ [الجاثية] . [القاموس القويم] بتصرف .

إذن: فهناك مُتَّبِع - بكسر الباء - وهناك مُتَّبَع - بفتح الباء - المُتَّبَع - بفتح الباء - يعلم أن ما يقوله هو كلام ملتو، يشوه الحقيقة ويزينها، أما المتبِع - بكسر الباء - فيظن أنه يتبع أناساً عاقلين أمناء فأخذ كلامهم بتصديق.

إذن: فالمتبع (بكسر الباء) يكون الظن من ناحيته، أما المتبع (بفتح الباء) فيكون الخَرْص والكذب والافتراء من ناحيته؛ ولذلك يقول لنا الحق سبحانه:

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (٧٨)﴾ [البقرة]

هؤلاء - إذن - يصدِّقون ما يقال لهم؛ لأنهم أميُّون، والكلام الذى يقال لهم راجح، وهم لو فكروا بعقولهم لما انتهوا إلى أنه كلام راجح.

أما الآخرون فيقول فيهم الحق سبحانه:

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ..(٧٩)﴾ [البقرة]

وهؤلاء هم الذين يأتى منهم الخَرْص والإفك وقول الزور والبهتان[1].

إذن: فالكفار إن كانوا من الأميين فهم من أهل الظن، وينطبق عليهم قول الحق سبحانه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ ..(٦٦)﴾.

وإن كانوا من القادة والرؤساء فهؤلاء هم من ينطبق عليهم قول الحق سبحانه: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (٦٦)﴾.

(١) البهتان: الافتراء و الكذب. قال تعالى: ﴿وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ .. (١٢)﴾ [الممتحنة] [لسان العرب: مادة (ب هـ ت)].

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

وشاء الحق سبحانه بعد أن بيَّن الإيمان والمؤمنين ، وما يمكن أن يدَّعيه الكافرون فى نبيٍّ الرسالة ، وبعد أن بيَّن المنهج ، ها هو سبحانه يأتى بالكلام عن آياته سبحانه فى الكون تأييداً للمطلوب بالموجود.

فالمطلوب أن نؤمن برسول يبلِّغ منهجاً عن الله ؛ ليكون هذا المنهج نافعاً لنا ، وإنْ أراد أحد دليلاً على ذلك فلينظر إلى الآيات التى وجدت للإنسان من قبل أن يُكلَّف ، أهى فى مصلحته أم فى غير مصلحته؟

ومادامت الآيات الموجودة فى الكون - والمسخَّرة للإنسان - تفيد الإنسان فى حياته ، فلماذا لا يشكر من أعطاه كل تلك النعم ، وقد أعطى الحق - سبحانه وتعالى - الإنسان من قبل التكليف الكثير من النعم ، وفور أن يصل إلى البلوغ يصير مكلَّفاً.

إذن : فالله سبحانه لم يكلِّف أحداً إلا بعد أن غمره بالنعم النافعة له باعتقاد من العبد ، وصدق من الواقع.

فإذا ما جاء لك التكليف ، فَقِسْ ما طُلب منك على ما وُجد لك ، فإذا كنت تعتقد أن الآيات الكونيةَ التى سبقَت التكليف نافعة لكَ قبل أن يطلب منك «افعل كذا» و«لا تفعل كذا» ؛ فَخُذْ منها صدقاً واقعاً يؤيد صدق ما طُلِب منك تكليفاً ، فكما نفعك فى الأولى ، فالحق سبحانه

سينفعك باتباعك التكليف ، واستقبلْ حركة الحياة على ضوء هذا التكليف ؛ لتسعد[1] .

ونحن نعلم أن الأصل فى الإنسان أن يرتاح أولاً ليتحرك ، ثم يتعب ، ثم يرتاح ؛ ولذلك نجد التكاليف قد جاءت على نفس المنوال ، فقد أراحك الحق سبحانه إلى سن البلوغ وأخذت نعم الله تعالى وتمتعت بها إلى سن البلوغ ، ارتحت اختياراً ، وارتحت فى مراداتك ، ثم تجىء «افعل» و«لا تفعل» لتلتزم بما يُصْلِح لك كل أحوالك .

وإذا كان التكليف سيأخذ منك بعضاً من الجهد ، فهناك فاصل زمنى للراحة ، وأنت فى حياتك تجد وقتاً للراحة ، ووقتاً للحركة ، والراحة تجعلك تسعى بنشاط إلى الحركة ، والحركة تأخذ منك الجهد الذى تحب أن ترتاح بعده .

إذن : فالحركة تحتاج للراحة ، والراحة تحتاج للحركة .

وجاء الحق سبحانه إلى الفترة الزمنية المسماة «اليوم» ، فبيَّن لنا أنه كما قسَّم الوجود الإنسانى إلى مرحلتين :

الأولى : هى ما قبل البلوغ ولا تكليف فيها .

والثانية : هى ما بعد البلوغ وفيها التكليف .

فقد قسَّم الله سبحانه أيضاً «اليوم» إلى وقت للراحة ووقت للحركة ، فقال تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ..** ﴿٦٧﴾ ﴾ [يونس]

(١) مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [فصلت] .

فكما خلق الحق سبحانه لنا اليوم وفيه وقت للراحة ، ووقت للحركة ، كذلك شرع الحق سبحانه منهج الدين ؛ لتستقيم حركة الحياة ؛ لأن الإنسان - الخليفة فى الأرض - لا بد أن يتحرك ، ولا بد أن تكون حركته على مقتضى «افعل كذا» و«لا تفعل كذا» ، وما لم يَرِدْ فيه «افعل» و«لا تفعل» فهو مباح ؛ إن شاء فعله ، وإن شاء لم يفعله[1] .

وكل فعل ، وكل نهى يتطلب حركة ، وإياك أن تتصور أن النهى لا يتطلب حركة ؛ لأنك تتحرك فى أمر ما ثم يأتيك قرار التوقف ، وقد تتوهم أن التوقف لا يحتاج إلى حركة ؛ لأنه سلبك ملكة القيام بما تعمل ، ولكنك تنسى أن هناك حركة داخلية ، وهى الدوافع التى كانت تلح عليك أن تقوم بما تشتهيه نفسك ولا يواكب منهج الله ، وأنت تكبت تلك الدوافع وتكبح جماحها[2] ؛ لأن الله سبحانه قد أمرك بذلك .

وما دامت هناك حركة فلا بد أن يأتى منها تعب ؛ لذلك جعل الله تعالى لك حقّاً فى الراحة .

وكذلك عُمْر الإنسان ، لم يكلِّف الله - تعالى - الإنسان إلا بعد البلوغ ، وترك له الفترة الأولى من عمره دون تكليف منه وحساب ، لكنه سبحانه لم يقطع عنه التكليف فى تلك المرحلة بتاتاً ، وإنما منع حسابه على ما «يفعل» أو «لا يفعل» ، وترك مسئولية التدريب على التكليف للأب مثلاً ، فالأب يقول لابنه : «لا تكذبْ» فإن كذب ؛ فالأب يعاقبه ، وهكذا يكون الأمر من الوالد ، والنهى للولد والأمر والنهى يتطلب ثواباً أو عقاباً .

---

(١) لأن كلمة (افعل) يندرج تحتها الأمر من الله ورسوله ﷺ فى الواجبات والفرائض والسنن والمندوبات والمستحبات . وكلمة (لا تفعل) يندرج تحتها النهى من الله ورسوله ﷺ وذلك فى الحرام والمكروه . أما غير ذلك فهو مباح .

(٢) تكبح جماحها : تمنعها عن المعاصى . مأخوذة من كبح الدابة أى : جذبها إليه باللجام ، وضرب فاها به ؛ كى تقف ولا تجرى . [لسان العرب : مادة (ك ب ح)] .

ويبيِّن لنا رسول الله ﷺ هذا الأمر فيقول: «مروا أولادكم بالصلاة لسبع سنين ، واضربوهم عليها لعشر سنين »[(١)] .

والذى يأمر هنا الابن بالصلاة هو الأب ، وهو أيضاً الذى يعاقب على ترك الصلاة ، وهو الذى يثيب ابنه إن أراد أن يجعل الصلاة محبوبة للابن ، وأن يجعل للابن أنساً بالعبادة.

وحين يكلِّف الأب ابنه بالصلاة ، فالابن يطيع ؛ لأن الأب هو الذى يقضى حاجات الابن ، ويحقق له مصالحه ، والابن يعلم أن والده لن يكلفه إلا بما يحقق تلك المصالح ، وهو يفعل ذلك ؛ لأنه يحبه ؛ لذلك جعل رسول الله ﷺ الأمر والنهى من النافع للابن ؛ لتوجد حيثية قبول فى النفس.

وما إن يأت البلوغ فيكون التكليف من الله والأمر من الله ، والثواب والعقاب منه سبحانه.

إذن: فالأمر والنهى قبل البلوغ يأتيان من الأب ؛ ليتعود الإنسان استقبال الأمر والنهى من ربه ورب أبيه.

وإذا كانت الحياة والسير فيها على ضوء منهج الله تعالى يقتضى حركة فى «افعل» و «لا تفعل» فلا بد أن يحتاج الإنسان إلى راحة من الحركة ؛ لذلك يبيِّن لنا الله سبحانه أنه جعل فى «اليوم» ليلاً ونهاراً ، ولكلٍّ مهمة ، فإياك أن تضع مهمة شىء مكان شىء آخر ؛ حتى لا ترتبك الأمور ، ولكن الظروف قد تضطرك إلى ذلك ، فهناك من يسهر للحراسة ، وهناك من يسهر للعمل فى المخابز ، أو إعداد طعام الإفطار للناس ؛ ولذلك فهناك احتياط قدرى ، فقال الحق سبحانه فى آية ثانية:

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ١٨٧) وأبو داود فى سننه (٤٩٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص. واللفظ لأحمد.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ ..(٢٣) ﴾ [الروم]

لأن الحق سبحانه قد علم أزلاً أن هناك مصالح لا يمكن إلا أن تكون ليلاً ، فالذى يعمل ليلاً يرتاح نهاراً ، ولو أن الآية جاءت عمومية ؛ لقلنا لمن ينام[1] بالنهار : لا ، ليس هذا وقت السكن والراحة .

ولكن شاء الحق سبحانه أن يضع الاحتياطىَّ القدرىَّ ؛ ليرتاح من يتصل عمله بالليل .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ .. (٦٧) ﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن هناك فارقاً بين «الخَلْق» ، و«الجَعْل» ، و«المُلْك» ، والمثال على الخلق : أنه سبحانه خَلَق الزمن ، ثم جاء لهذا الزمن ليجعل منه ليلاً ونهاراً[2] .

إذن : فالجعل هو توجيه شىء مخلوق لمهمة .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - وهو مُنَزَّه عن أى تشبيه أو مثل :

تجد صانع الفخَّار وهو يمسك بالطين ؛ ليجعل منه إبريقاً ، فهو يصنع الطين أولاً بأن يخلط الماء بالتراب ويعجنهما معاً ، ثم يجعل من الطين

---

(١) نام فلان نومًا : اضطجع أو نَعَسَ وإليه سكن واطمأن ووثق به ومن حاجته غفل عنها ولم يهتم بها وأنامه : أرقده ، ونوَّم فلان : أرقده . والتناوم التظاهر بالنوم . واستنام : نام واطمأن . والنوم من آيات الله ؛ لأنه راحة وسكن ، والراحة مع السكن تعطى قوة الحركة والثبات فى التفكير والتركيز . [المعجم الوجيز - بتصرف] .

(٢) يقول سبحانه : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾ [القصص] .

إبريقاً أو أصُصَ زرع أو زهرية ورد ، وهو بذلك إنما يحوِّل مخلوقاً إلى شيء له مهمة.

والزمن كله لله سبحانه ، جعل منه قسم الليل ، وقسم النهار ، مثلما خلق الإنسان ، ووجَّه جزءاً منه ؛ ليجعله سمعاً ، وجزءاً آخر ؛ ليجعله بصراً ، وجزءاً آخر ؛ ليصير مخاً ، وجزءاً آخر ؛ ليكون رئة ، كل ذلك مأخوذ مما خلقه الحق سبحانه.

أي: أنه سبحانه جعل أشياء مما خلق أصلاً ؛ لتؤدى مهمة للمخلوق.

وفي حياتنا - ولله المثل الأعلى - نجد من يغزل من القطن خيوطاً ، وهناك من ينسج من تلك الخيوط قماشاً ، وبعد ذلك نجد من يأخذ هذا القماش ؛ ليجعل منه جلباباً أو بنطلوناً أو قميصاً أو لحافاً.

إذن: فالجعل هو أخذ من شيء مخلوق لمهمة. والخلق قد يترتب عليه ملْك ، والجعل أيضاً قد يترتب عليه ملْك ؛ فمن عمل قِدْراً من الطين هو مَالكه ، ومن جعل من الطين إبريقاً إنما يملكه.

وهكذا نجد الخَلْق والجَعْل قد يترتب عليهما ملكية ما ، لكن الملكية المنسحبة بعد الخلق والجعل تجعلك تنتفع بالأشياء وقد لا تملكها ؛ لذلك نجد قول الحق سبحانه:

﴿ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ .. (٣١) ﴾ [يونس]

والحق سبحانه خلق لنا الأنعام ، وذلَّلها لنا ، وملَّكها لنا ، وإذا قال الحق سبحانه: «ملْك» فملكيته سبحانه لا تنتهى لأحد أبداً سواء من الخلق أو الجعل ، بل يظَل مملوكاً ؛ ولذلك قلنا: إن نقل الأعضاء هو تحكُّم فيما لا يملكه المخلوق ، بل يملكه الخالق سبحانه وتعالى.

يذكر الحق سبحانه الليل والنهار فيقول:

﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا .. ﴿٦٧﴾﴾ [يونس]

وكان مقتضى الكلام أن يقول:

جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار لتتحركوا .

وشاء سبحانه أن يأتى هنا بالأداء القرآنى المعجز فقال: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ .

فهل النهار هو الذى يُبصر أم نحن؟

هل النهار مُبصِر أم مُبصَر فيه؟

وقديمًا لم يكونوا قد وصلوا إلى الحقيقة العلمية التى وصلنا إليها الآن ، فقد كانوا يعتقدون أن الضوء [1] يخرج من العين إلى المرئى فتراه ، إلى أن جاء «الحسن بن الهيثم» العالم العربى المسلم ، وأوضح بالتجربة أن الضوء إنما ينعكس من المرئى إلى العين ، بدليل أن المرئى إن كان فى النور وأنت فى الظلام ، فأنت تراه ، وإذا كان الأمر بالعكس فأنت لا تراه .

إذن: فقد سبق القرآن كل النظريات ، وبيَّن لنا أن النهار إنما يأتى بالضوء فينعكس الضوء من الكائنات والموجودات إلى العين فتراه .

إذن: فالنهار هو المبصر ؛ لأنه جاء بالضوء اللازم لانعكاس هذا الضوء من المرائى إلى العيون .

ونحن نجد القرآن حين يتعرض لليل والنهار يقول:

---

(١) الضَّوْء - بفتح الضاد والضُّوء - بضمها والضياء ، والضَّوَاء : النور الذى ينتشر من الأجسام المضيئة ، وقد يُخص الضوء لما كان صادراً من شىء مضىء بنفسه كضوء الشمس ، وقد يُخصص بالنور لما كان مستمداً من ضوء ، كنور القمر . قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ..﴿٥﴾﴾ [يونس] . [القاموس القويم] بتصرف .

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ..(٣٧)﴾ [فصلت]

ويقول:

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا [1] آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ..(١٢)﴾ [الإسراء]

وهى مبصرة كما أثبت الحسن بن الهيثم العالم المسلم ، وإن كانت فى ظاهر الأمر مُبْصَرٌ فيها.

ويعطى لنا الحق سبحانه تجربة حية مع موسى عليه السلام ، وذلك فى قوله سبحانه لموسى - عليه السلام :

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠)﴾ [طه]

وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ ليتعرف موسى بالتجربة على ما سوف يحدث من عصاه أمام فرعون ، ثم أمام السحرة ، ثقة منه سبحانه أن موسى حين يراها تنقلب إلى حية أمام عينيه لأول وهلة سوف يفزع ؛ فيطمئنه الحق سبحانه بقوله :

﴿..خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ [2] (٢١)﴾ [طه]

وكانت المرة الأولى لتحوُّل العصا إلى حية ، هى تجربة للاستعداد ؛ حتى لا يجزع موسى - عليه السلام - أو يخاف لحظة أن يمر بالتجربة العملية ، وحتى يقبل على تقديم المعجزة وهو واثق تمام الثقة أمام فرعون.

---

(١) جعل الله لليل آية وهى القمر ، وجعل للنهار آية وهى الشمس ، وجعل آية النهار مبصرة أى : منيرة تنير الكون كله ، أما القمر فقد محا آيته وهو سواد القمر الذى فيه . بتصرف من تفسير ابن كثير (٣/ ٢٧).

(٢) أى : سنعيدها كما كانت (عصا) .

ثم قال الحق سبحانه لموسى - عليه السلام :

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ [1] .. (١٢) ﴾ [النمل]

والجيب : هو المكان الذى تنفذ منه الرقبة فى الجلباب ويسمى (القبة) ، فلا يظن أحد أن الجيب المقصود هنا هو مكان وضع النقود ؛ لأن مكان وضع النقود قديماً كان يوجد من داخل الجلباب ، مثل جيب (الصديرى) الذى يرتديه أهل الريف ، وقد سُمِّى الجيب الذى نضع فيه النقود جيباً ؛ لأن اليد لا تذهب إلى الجيب إلا إذا دخلت فى الفتحة التى تخرج منها الرقبة.

وقد قال الحق سبحانه لموسى - عليه السلام :

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ..(١٢) ﴾ [النمل]

ويخبره الحق سبحانه :

﴿ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً ..(١٣) ﴾ [النمل]

هكذا كانت الآيات مبصرة [2] وكأنها تقول للعين : أبصرينى.

---

(١) الجيب : النحر والصدر . قال تعالى : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ .. (٣١) ﴾ [النور].

(٢) بَصُرَ به : رآه ببصره ، فهو بصير ، وبَصُرَ بالأمر : علمه كأنه رآه ببصره . وقوله : ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ .. (١١) ﴾ [القصص] أى : رأته من أحد جوانب البيت . وأبصر : رأى . قال تعالى : ﴿ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) ﴾ [الصافات] أى : انظر وترقَّب . وأبصره : جعله يُبصر ، وجعله يعلم علم من يبصر . قال تعالى : ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) ﴾ [الصافات] . والبصير : من أسماء الله الحسنى ، والبصير : مَنْ له عينان يُبصر بهما ، ضد الأعمى . قال تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ..(٥٠) ﴾ [الأنعام] والبصيرة : نور القلب والحجة الواضحة ومن المجاز قولهم : نهار مبصر ، أى : مضىء . قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ..(٦٧) ﴾ [يونس] ، وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً .. (١٢) ﴾ [الإسراء] وقوله : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً .. (٥٩) ﴾ [الإسراء] أى : معجزة واضحة . وقوله : ﴿ ..إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١) ﴾ [الأعراف] أى : عارفون الحق . [القاموس القويم - بتصرف].

وهنا فى الآية - التى نحن بصدد خواطرنا عنها - يقول الحق سبحانه:

﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ..(٦٧)﴾ [يونس]

ولم يقل: لتتحركوا فيه، بل جاء بما يضمن سلامة الحركة، فقال سبحانه: ﴿مُبْصِرًا﴾ لأن الضوء الذى ينعكس على الأشياء هو الذى يحفظ للإنسان سلامة الحركة.

ولكن البعض من الناس فى زماننا يستخدمون نعمة الكهرباء فى الإسراف فى السهر، وحين يأتى الليل يسهرون حتى الصباح أمام جهاز (التليفزيون) أو (الفيديو) أو فى غير ذلك من أمور الترفيه، ثم ينامون فى النهار، وينسون أن الليل للرقود، والنهار للعمل. وقد ثبت أن للضوء أثراً على الأجسام، فالضوء يؤثر فى الكائن الحى، وقد سبق النبى ﷺ ذلك الاكتشاف بزمان طويل وقال:

«أطفئوا المصابيح إذا رقدتم»[1]؛ وذلك حتى لا ينشغل الجسم بإشعاعات الضوء التى تتسبب فى تفاعلات كيماوية فى الجسم.

لذلك أقول دائماً: خذوا الحضارة بقواعد التحضير لها؛ لأننا يجب أن نتيح للفلاح أن يذهب إلى حقله والعامل إلى مصنعه؛ لأن السهر ضار، وإذا ادَّعى الإنسان أنه هو الذى تحضَّر، فليحترم قيمة العمل الذى يصنع الحضارة؛ لأن الآلة التى يسهر لمراقبتها ومشاهدتها هى إنتاج أناس يلتزمون بقواعد الحضارة، واحترام قيمة العمل فى النهار، وقيمة الترفيه فى الوقت المخصص.

نحن نسىء استخدام أدوات الحضارة، فالزمن الذى وفَّرته الثلاجة للزوجة؛ حتى لا تقف فى المطبخ نصف النهار لتعد الطعام، وصارت

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٦٢٤) وأحمد فى مسنده (٣/ ٣٨٨) عن جابر بن عبد الله، واللفظ للبخارى.

تطهو وجبات ثلاثة أيام وتحفظها فى الثلاجة ، وتستخدم الغسالة الكهربائية فتنهى الغسيل فى ساعة من الزمن ، لكن بقية الوقت يضيع أمام (التليفزيون) ولا تلتفت إلى تربية الأبناء.

وهكذا يسىء البعض استخدام الآلات المتحضرة ، وفى هذه الإساءة نوع من التخلف ، فإذا أخذنا الحضارة بمنطقية فهذا هو التحضر.

وعلى سبيل المثال: أقول لمن يركب سيارة: إياك أن تسرع بها فى طريق متربة حتى لا يثور الغبار ويملأ صدور الناس بالحساسية.

وإياك أن تهمل صيانة سيارتك حتى لا يفسد الموتور ؛ ويخرج العادم الضار بصحة الناس والبيئة ، فلا يسافر الإنسان فى الطريق المتربة أو بسيارة غير جيدة الصيانة ؛ فيصيب صدور الناس بالمرض ، ويصيب الزروع ويفسد الهواء.

ويجب ألاَّ نأخذ الحضارة بتلصص ، إنما علينا أن نرتقى إلى مدارجها بصيانة أساليبها ؛ لأن من لا يأخذ الحضارة بقواعدها هو من يتخلف رغم تقدُّم الآلة ، فتصير الآلة أكثر تحضُّراً منه.

إذن: فإن أخذنا كل أمر بمهمته فنحن نحقق الراحة لأنفسنا ولغيرنا.

ولذلك قلنا فى تفسير قول الحق سبحانه:

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) ﴾ [الليل]

وإن بدا للإنسان أن هناك تعارضاً بين غشيان الليل (أى: تغطيته للمرئيات) وتجلِّى النهار (أى: كشف المرئيات) فهذا ليس تعارضاً، بل هو التكامل ؛ لأن حركة النهار تتولد من الليل ، وراحة الليل تتولد من النهار.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [الليل]

وهذا الخلق للذكر والأنثى هو للتكامل ، لا للتناقض ، هكذا جاء الحق سبحانه بنوعين :

الأول: هو الزمن ليلاً ونهاراً .

والثاني: هو الإنسان ذكراً وأنثى .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (1) ﴿٤﴾ ﴾ [الليل]

أى : أن حركتكم هى الموصِّلة إلى غايتكم ، والحركات شتى (أى : مختلفة) ، سواء فى الليل أو النهار أو للذكر أو للأنثى ، فإن خلطنا الحركة وعبثنا بأنظمة الحياة ؛ فالحياة ترتبك ، ونعانى من مرارة التجربة إلى أن تتعقد الأمور ، فنبحث لها عن حلول .

وقد نادينا أن تعمل المرأة نصف الوقت لتعطى البيت بعضاً من الوقت ، أو أن تعتنى بالبيت إن كان لها ما يكفيها من دخل ، أو كان لزوجها ما يكفى لحياة الأسرة ، ولكن أحداً لم يلتفت إلى ذلك إلا بعد مرارة التجارب .

وهناك مثال آخر : فى قول البعض أن الليل فى تلك البلاد المتحضِّرة لا ينتهى وأنت تجد السهر هناك حتى الصباح ، وعندما أسمع مثل هذا القول أقول : إن هذا ليس فى مصلحة سكان تلك البلاد ؛ لأن الليل يجب أن يكون سباتاً لتأتى الحركة المنتجة فى النهار .

---

(1) شت الجميع يشتُّ شتّاً ، وشتاتاً : تفرق فهو شتيت ، وهم شتى وأمر شتٌّ متفرق وجمعه أشتات . قال تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا .. ﴿٦١﴾ ﴾ [النور] أى : متفرقين . وقوله : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [الليل] أى : متنوع منه الحسن ومنه السيء، وقوله : ﴿ .. أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ ﴾ [طه] مختلفة الطعم والنوع ، وقوله : ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [الحشر] أى : متفرقة . [القاموس القويم - بتصرف] .

إذن: فالآفة أن تنقل مهمة نوع إلى مهمة نوع آخر ، سواء أكان فى الزمان أو فى الإنسان ، واقرأ جيداً قول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [الليل]

فكل فرد من أفراد الكون له مهمة وله سعى يختلف عن سعى الآخرين.

وهنا فى الآية - التى نحن بصدد خواطرنا عنها - يُنهى الحق سبحانه الآية فيقول :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [يونس]

ولقائل أن يقول: لم يقل «إن فى ذلك لآيات لقوم يبصرون» .

ونقول: لننتبه إلى أن الحق سبحانه حين يتكلم عن زمان فهو يبيِّن فى هذا الزمان مهمته ، وهو القائل فى صدر الآية ووسطها :

﴿ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ..﴿٦٧﴾ ﴾ [يونس]

فالعلَّة فى هذه الآية هى سكون الليل ، لا حركة النهار ، والعين فى الليل لا تؤدى مهمتها ، بل السمع هو الذى يؤدى مهمته .

والحق سبحانه هو القائل:

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا [1] إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [القصص]

أى: أن أحداً لن يستطيع الحركة فى مثل هذا الليل السرمدى ولا أحد سيتبيَّن شيئاً.

(١) السرمد: دوام الزمان من ليل أو نهار. وليل سرمد: طويل. قال الزجَّاج: السرمد الدائم. [لسان العرب: مادة (س ر م د)].

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [القصص]

إذن : فقد جاء الحق سبحانه فى آية الليل بالسمع (١) ، وجاء فى آية النهار بالأبصار ، وبعد أن تكلم الله سبحانه عن مجال الحركة بالنهار والراحة فى الليل ، يأتى الكلام عن الينبوع الذى يجب أن تَصْدُرَ عنه الحركة أو السكون ، وهو ضرورة الامتثال لأمر إله واحد حتى لا تصطدم حركتك بأمر إله آخر يقول ما يناقض حركة الإله الأول.

وكما تتحرك فى النهار ، وترتاح فى الليل لا بد أن تكون حركتك صادرة عن أمر واحد ، هذا الأمر الواحد صادر من الآمر الواحد ، وهو الله تعالى الذى تعبده بلا شريك ، ومن يقول بغير ذلك إنما يربك حركة الحياة.

والله سبحانه يقول :

﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ .. ﴿٩١﴾ ﴾ [المؤمنون]

ولذلك يقول الله سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ الْغَنِيُّ ۖ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَـٰذَا ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

(١) وهنا يلفتنا فضيلة الشيخ إلى الإعجاز القرآنى فى أسراره ، حيث وضع الحاسة فى مكان وظيفتها التى تستطيع الأداء فيه ، فجعل الإبصار للنهار لأنه مكانه ، وجعل السمع لليل حيث إن البصر لا يؤدى مهمته ، وإنما المهمة هنا تخص السمع ، وهذا كمال الأدب وجلال الأسرار فى كتاب الله بلاغة بيان ، ومعنى يرقى .